

ليس في كتابي هذا شيئاً مما درسته في أطروحة الدكتوراه التي أشير إليها، وإنما فيه الكثير من شاغلها المنهجي ونوع الاهتمام مع تعديلات أحسبها أساسية أحياناً فيما يتصل بالموقف إزاء الآخر، وكيفية تحليل خطابه الأدبي. ولعل أبرز تلك التعديلات - في تقديري - هو السعي نحو تحليل أكثر هدوءاً وتفكيراً من ذي قبل. ففي دراستي للعلاقة بين البحري وبيتس أو لصورة العربي عند وردزورث أجدني أكثر اهتماماً من ذي قبل بتعقيدات الخطاب الأدبي وتشابكات الصور الثقافية، إذ تتشكل في مخيلة الشاعر إزاء ثقافة أخرى، أو ما اصطُح على تسميته بـ «الآخر». ولربما انسحب ذلك على الدراسات الأخرى بأقدار متفاوتة وعلى النحو الذي يتوقع على أية حال من دراسات لم تكتب أساساً كأجزاء من كتاب واحد. فمهما كان التغيير الذي أصاب رؤيتي أو تناولي المنهجي، فإن من الصعب أن ينعكس بالقدر نفسه على دراسات متفاوتة زمنياً كالتفاوت بين الدراسة الأولى «البحري وبيتس» (١٩٨٩) والدراسة الأخيرة حول «حجازي وإليوت» (١٩٩٣) التي كتبت أساساً بالإنجليزية لتنتشر في دورية جامعية أمريكية.

وقد يلفت نظر القارئ في هذا السياق تفاوت أكثر وضوحاً، إذ يتمثل في العنوانين الأخيرين: فثمة سؤال مشروع هنا عن إمكانية الربط بين شاعرين شديدي التفاوت زماناً ومكاناً وتوجهاً وظروفاً كالبحري وبيتس، خاصة وأن هذا الربط يتم إلى جانب تناول أكثر منطقية في كل النواحي المشار إليها، هو الربط بين إليوت وحجازي!

يتعلق التفاوت هنا بفهمي للمقارنة وممارستي لها. فمن حيث المنهج لست ممن يقرون حصر المقارنة في إطار العلاقات التاريخية أو الوقائعية الثابتة، كما هي الحال في المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن. ولعلي هنا أقرب إلى المدرسة الأمريكية في تأكيدها على ما أسماه رينيه ويليك بـ «كلية الظاهرة الأدبية»، أي بقدرة الأدب على تخطي حواجز التاريخ وتحقيق التلاحم على أسس فنية. وإذا كان هذا يبعثني إلى حد ما عن الواقعية التي بدت لصيقاً بها في كتاباتي النقدية التي عرفها البعض وقيمني على أساسها، فإن في رفضي لإغلاق الفن على نفسه - بالكيفية التي تتضح من الدراسة - ما يبعثني أيضاً عن ويليك وتوجهه الشكلاني. لكن هل يعني هذا النفي وهذا الإثبات أنني بت أعرف منهجي بوضوح؟ بالطبع لا، وإنما هي ملامح تتضح